الفصل الرابع

أم كلثوم
و تطور فن الغناء العربى

أم كلثوم وتطور فن الغناء العربى

قدم التخت الشرقى بعد سيد درويش عبقريات غنائية فذه استطاعت تقديم الفن الراقى المتميز أمثال فاطمة البلتاجى[1] (١٨٩٩-١٩٧٥) الشهيرة بأم كلثوم[2] صاحبة الموهبة الفذة ، وابنة الشعب الكادح من الفلاحين الفقراء والتى استطاعت بموهبتها المقترنة بثقافتها التى كونتها بجهدها وإصرارها ومثابرتها مواجهة الصعوبات التى وقفت في طريقها [3] . وتمكنت بجمال صوتها ، وروعة أدائها ، وبذكائها في إختيار كلمات وألحان أغانيها وبقوة شخصيتها من أن تستولى على قلوب معظم المتحدثين بالعربية سواء في العالم العربى أو في غيره كما أسهم صوت أم كلثوم بمساحته الخصبة ، ومقاماته المصقولة ، وذبذباته السحرية ونبراته الوضيئه التى يتمثل فيها الجمال كله في تكوين أساليب جديدة في التلحين العربى أتاح للملحنين أن يجوبوا آفاقا جديدة ما كانت تتاح لهم لولا وجود هذا الصوت الذى غير وجه الغناء في مصر وفيما يلى نعرض لذلك .

رحلة أم كلثوم مع الغناء :

أم كلثوم من الشخصيات التى يمكن من خلالها معرفة الكثير عن حياة الشعب المصرى ، خاصة وأنها تحمل في حياتها قصة هذا الشعب الذى خرجت منه ، وقصة العصر الذى عاشت فيه فقد عاصرت عهد السلطان فؤاد وتحويل مصر إلى ملكية وعاصرت فترة حكم ابنه فاروق كما عاصرت قيام الثورة وتوقيع اتفاقية الجلاء وتأميم قناة السويس والسد العالى ، والصحوة السياسية المصرية على المستويين العربى والعالمى والذى عبرت عنها في أغانيها لذلك فإن قصة حياتها لا تعنى حياة فنانة مطربة موهوبة

---

(١) ولدت في ٣٠ ديسمبر ١٨٩٩ في قرية طماى "الزهايرة" التابعة لمركز السنبلاوين دقهلية ، وارتوت علم النغم من نبع الشيخ أبو العلا محمد وارتفع صيتها عندما انتقلت إلى القاهرة في عام ١٩٢٢ ، وكان رحيلها في الثالث من فبراير ١٩٧٥ .

(٢) الكلثوم في بعض معانيه اللغوية الراية الحريرية التى يرفعها الجندى فوق رأسه .

(٣) لم تدخل أم كلثوم مدرسة ولا جامعة ، ولم تتعلم سوى فترة قليلة في الكتاب تعليما بسيطا لا يتجاوز معرفة القراءة والكتابة ، ولكنها بذلت جهودا ذاتية لتثقيف نفسها ثقافة عالية ، وتمكنت من ذلك حتى أصبحت سيدة مثقفة ، لغتها العربية ممتازة قراءة وكتابة ، واستطاعت أن تحفر لنفسها هرما شامخا بين العظماء .

فحسب بل تذكرنا بجزء مهم من حياة المصريين ، ومن تاريخ مصر الحديث ، وبفترة المخاض التى عاشتها خلال ظهور الرواد الذين نجحوا في العبور بمصر في تحقيق حلم النهضة خلال القرن العشرين[1] ، وتركيز الجهود والإمكانات من أجل الارتقاء ، والخروج من دائرة التخلف والسلبيات التى عاشتها مصر في فترة الاحتلال البريطانى ، والمحاولات المستمرة للتخلص منه ونفض غباره عنها • وكانت أم كلثوم من أولى الفنانات المصريات اللاتى فرضن احترامهن الفنى والاجتماعى على مختلف طبقات المجتمع المصرى •

وقد بدأت رحلة أم كلثوم مع الغناء بداية متواضعة طافت خلالها مع أبيها إبراهيم البلتاجى المنشد في الموالد وأفراح القرى ومع أخيها في قرى السنبلاوين ، وبعض أنحاء الريف المصرى طوافا شاقا استغرق بضع سنوات من طفولتها وصباها المبكر الذى ارتدت خلاله الشال والعقال وملابس الصبيان ، وغنت شوامخ التراث الدينى الصوفى التى قام والدها بتحفيظها أياه • وقد أتيح لأم كلثوم وهى في نحو السادسة عشرة من عمرها أن تغنى لأول مرة في مكان قريب من القاهرة ، إذ دعيت مع والدها وشقيقها لإحياء ليلة المولد بإلقاء بعض التواشيح الدينية والإنشاد الدينى في دار أحد عليه القوم في المجتمع القاهرى بضاحية حلوان ، وكان من الممكن أن تستمر حياة أم كلثوم الفنية كذلك لولا أن القدر وضع في طريقها من أتاح لها رسم ملامح المنعطف الكبير في حياتها • فقد إلتقت الفنانة الناشئة أم كلثوم بالشيخ أبو العلا محمد [2] الذى تصادف أن سمعها في القطار وهى تردد ألحانه دون أن تعرف أنه موجود في القطار ، ومن يومها توثقت العلاقة بينهما ، وبتوجيه منه وصلت أم كلثوم إلى القاهرة في عام ١٩٢٢م ، وأخذت تغنى في "مقهى سانتى" بالأزبكية وفى "مسرح البوسفور" في ميدان باب الحديد بدون فرقة

---

(١) عاشت أم كلثوم عصر طلعت حرب وسعد زغلول ومصطفى عبد الرازق وأحمد شوقى وطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم وغيرهم •

(٢) ولد في بلدة بنى عدى بمديرية أسيوط في عام ١٨٧٨ ، وتعلم في الأزهر ، وتحول إلى فن الغناء ، وكان متأثرا بطريقة عبده الحامولى في الغناء وبأسلوبه في التلحين ، وظهر ذلك جليا خلال تلحينه لأم كلثوم • قام بتلحين عيون الشعر الرفيع ، كما لحن القصائد الصوفية ، وقد ارتبطت به أم كلثوم ارتباط التلميذ بالأستاذ • وظل الشيخ أبو العلا من أعمدة الغناء العربى حتى وافاه الأجل في الخامس من يناير ١٩٢٧ •

أم كلثوم أثناء إحدى بروفات أغنياتها مع فرقتها الموسيقية

موسيقية كما غنت كذلك على مسرح حديقة الأزبكية ، وخلال هذه الفترة كان الشيخ أبو العلا بمثابة الأب الروحى والمدرسة الحقيقية التى تلقت فيها أم كلثوم فن غناء القصائد من شيخها الفنان الذى اكتشف حقيقة قدرتها وموهبتها ، ونقل ذوقه الفنى إليها ودرب حنجرتها على الألحان العربية الصميمة ، وبدأ بتحفيظها قصائد عبده الحامولى ، ويدربها على ألحانه ولم يكن "أبو العلا محمد" مجرد موسيقار فحسب بل كان صاحب رسالة هدفها تخليص الغناء المصرى من رنة الغناء العثمانى والغجرى ، وتبنى المواهب الجديدة التى تستطيع أن تقدم فنا راقيا يبعث الغناء العربى الأصيل من مرقده وينطلق بالموسيقى العربية في آفاق جديدة تتخلص فيها من الاعتماد على الارتجال والتقليد ، وتقوم على أسس علمية تستطيع من خلالها التعبير الصادق العميق عن روح الشعب المصرى وعن همومه وأفراحه[1] .

وقد وجد الشيخ أبو العلا في أم كلثوم ضالته المنشودة بعد أن أحس بقيمة موهبتها وبصوتها الجميل القوى الذى يمتلك مساحات واسعة يخاطب بها القلب والعقل معاً فأخذ على عاتقه أن يتبنى هذه الموهبة ، وأن يحُطيها بكل الظروف المناسبة ليقدم من خلالها فنه الراقى المتميز فتولى صوت أم كلثوم بالتدريب واستطاع صقله إلى أعلى مستوى ، وعلى يد هذا الشيخ الفنان بدأت أم كلثوم أولى مراحلها الفنية التى شربت خلالها كل قطرة فن وثقافة من أستاذها ، فظهرت أمام الجمهور لأول مرة فى خريف عام ١٩٢٣ على مسرح "بيلوت باسك" فى شارع الألفى وهى مرتدية ملابسها الريفية تصاحبها مجموعة تنشد دون مصاحبة أى آله موسيقية اللحن الدينى المشهور .

"مولاى كتبت رحمة الناس عليك"

وكادت هذه المرة تضعف من معنوياتها وتثبط من همتها خاصة عندما لم يعجب أحد المستمعين منظر ملابسها ولا طريقتها فى الغناء فصاح قائلا (كتب علينا الغلب يا أختى) وضج الجمهور بالضحك وانفجرت المطربة الناشئة بالبكاء ، ولكن الشيخ أبو العلا لم يتركها لليأس بل وقف بجانبها يساعدها على تثبيت أقدامها موضحاً لها أن الجمهور مادة خام والفنان هو الذى يشكلها بيديه ، وأنه على المطربة أن تتفهم الجمهور الذى تغنى له لتتمكن من السيطرة عليه وتوجيهه . وظل هذا الشيخ الفنان بجانبها حتى وقفت على

([1]) رجاء النقاش : لغز أم كلثوم ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠ ص ١٠٧ .

قدميها . فغنت أم كلثوم للشيخ أبو العلا عشرة ألحان[1] . منها تحفته الغنائية "وحقك أنت المنى والطلب" [2] (عام ١٩٢٦) التى غناها الشيخ أبو العلا من قبل ناسجاً فيها على منوال طريقة عبده الحامولى فى تلحين القصائد ، وهى من تأليف الشيخ عبد الله الشبراوى الذى كان شيخاً للأزهر . وتشاء الظروف أن يبتسم الحظ لأم كلثوم فيستمع إلى غنائها أسرتان كانتا بمثابة مفتاح بزوغ نجمها وهما أسرة آل عبد الرازق[3] وأسرة آل المهدى[4] ومن خلال هاتان الأسرتان استطاعت أم كلثوم أن تتعرف على النخبة المثقفة فى مصر ، كما استمدت منهما زاداً وطنيا ساعدها على تفهم مجريات ما حولها . وأثناء ذلك استمر الشيخ أبو العلا فى وضع بصماته الفنية لإبراز صوت أم كلثوم فبعد أن غنت قصيدة "وحقك أنت المنى والطلب" غنت له "أفديه إن حفظ الهوى أو ضيَّعا" (عام ١٩٢٨) من نظم شاعر العصر الأيوبى "ابن النبيه" بعد أن غناها الشيخ أبو العلا وسجلها على أسطوانة فكانت من أجمل الألحان التى تكامل فيها التوافق بين الشعر والغناء ، حيث وضع الشيخ اللحن والكلام فى وعاء واحد وأتاح لصوت أم كلثوم أن يستعرض كل جماله وإقتداره وعذوبته وجذالته فى هذه الأغنية .

وهكذا أكمل الشيخ أبو العلا من خلال صوت أم كلثوم مهمته فى تخليص الغناء العربى من العجمة العثمانية ، والرطانة الفارسية ، والألفاظ الغجرية التى عبثت بحناجر المطربين والمطربات لفترات طويلة[5] .

وبدأ الناس يستمعون من خلال صوت أم كلثوم إلى غناء يتوافق كلامه مع لحنه كما كان الشأن فى الغناء العربى أثناء ازدهاره وهكذا افتتحت أم كلثوم عهدا جديدا فى غناء القصيدة العربية ، ونجحت فى أن تعود آذان الناس على أغنيات جديدة وعلى ألحان جديدة وعلى يد الشيخ أبو العلا توسعت أم كلثوم فى استخدام المقامات الغنائية التى لم يكن

---

(1) سهير عبد الفتاح : حياة صوت أم كلثوم ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٢ ص ١٧-١٨ .

(2) غنت أم كلثوم مقطوعات من هذه الأغانى فى فرقة عكاشة خلال عرضها رواية "محمد على وفتح السودان" بمسرح الأزبكية حيث كان يتخللها مقطوعات غنائية .
انظر البلاغ فى ١٩٢٦/٣/١٧ والأهرام فى ١٩٢٦/٥/٩ .

(3) كان بيت آل عبد الرازق من بيوت العلم والاستنارة فى ذلك الوقت فهو الذى خرج منه على ومصطفى عبد الرازق .

(4) تبنى أمين المهدى رائد هذه الأسرة تعليم أم كلثوم أصول الموسيقى والعزف على العود .

(5) كمال النجمى : تراث الغناء العربى ص ٧٢ .

يعرفها رجال الموالد وحلقات الذكر والأناشيد الدينية ، وبجهوده نضج صـــوت أم كلثـــوم وتمت رعايته فنياً بالتدريب والتثقيف [١] ، لدرجة أنها جعلت "القوم سكارى من الطرب" ودفعهم إلى طلب الإعادة وتصفيق الاستحسان[٢] وإلى جانب ذلك فقد لحن الشيخ أبو العلا لأم كلثوم قصيدة "الصب تفضحه عيونه" التى ألفها أحمد رامى ونشرها فى جريدة السفور ومطلعها :

الصـــــــب تفضـــــــحه عيونـــــــه

وتـــــنم عـــــن وجـــــد شـــــئونه

إن تكتمنـــــــــــا الهـــــــــــوى

والـــــــداء أقتلـــــــه دفينـــــــه

ونتيجة لذلك ظلت أم كلثوم متعلقة بأستاذها ، ولم تنس أبدا فضله عليها بـــل ظلـــت تذكر دوره فى حياتها الفنية ، وبأنه أفسح أمامها آفاقا موسيقية واسعة وغرس فى نفســـها غرساً غنائياً طيباً ، وطبعها بطبعه[٣] . ويتمثل إخلاص أم كلثوم للشيخ أبو العلا ووفائها له أنها سارت فى جنازته وراء نعشه فى الخامس من يناير ١٩٢٧ فى الوقت الذى لم يكن مألوفا أن تسير إمرأة وسط الرجال فى جنازة تسير فى شوارع وأزقة المدينة ، كما يتمثل إخلاصها له مسايرتها للتقاليد الموسيقية الشرقية التى عملها لها فقد استطاعت أن تحفـــظ عن طريق الشيخ أبو العلا أدوارا كثيرة لمحمد عثمان ، وعبـــده الحـــامولى ، ويوســـف المنيلاوى وللشيخ أبو العلا نفسه الذى كان يلحن لها العديد من أغانيه فى البدايـــة ، وأن تساير هذه الأدوار لفترة .

ونتيجة لذلك ارتبط ظهور أم كلثوم بثورة فنية قومية فى الموسيقى والطرب وكانت قدرات صوتها ، وما فى أغانيها من ألحان من أبرز عوامل النجاح لهذه الثورة[٤] يضاف إلى ذلك أنها جمعت فى داخلها أرشيفا يعتبر ثروة فنية وتاريخية رائعة خاصة وأنها كانت تحفظ من الألحان والأغانى القديمة ما كان قد اندثر من أسمـــاع النـــاس

---

(١) كمال النجمى : الغناء المصرى ص ٥٥-٥٦ .

(٢) الأهرام فى ١٩٢٦/٥/٩ .

(٣) سهير عبد الفتاح : مرجع سابق ص ١٩ .

(٤) كمال النجمى : الغناء المصرى ص ٥٥-٥٦ .

محمد الموجى

كمال الطويل

رياض السنباطى

زكريا أحمد

القصبجى

محمد عبد الوهاب

بليغ حمدى

وأفواههم[١] . وظلت أم كلثوم ساحرة فى بساطتها وعقالها ولباسها العربى ونضارتها التى لا تنفذ ، وجلس حولها والدها وإخوتها وأبناء عمومتها يرددون وراءها ما يحفظ للسلم الموسيقى سلامته ، والناس ينصتون إليها مشدوهين . ولما كان ينقص أم كلثوم لكى تنطلق إنطلاقتها الكبرى عنصرًا آخر مهما وهو الشاعر الذى يفهم صوتها ويكتب لها نصوص أغانيها فقد وجدت ضالتها فى الشاعر أحمد رامى[٢] الذى عاد من بعثته فى فرنسا فى ٢١ يوليو ١٩٢٤ وبدأ يكتب لها بلغة جديدة تتسم بقدر أكبر من الوحدة اللغوية ، وبمستوى أسمى فى التعبير ، وقد ساعده على ذلك أن صوتها كان أحد المؤثرات التى استفزته لكتابة شعره ، واستثارت إلهامه فنظم لها العديد من الأغانى التى يفهم معانيها كل الناس حتى يرددها الجاهل والمثقف والفلاح وابن المدينة وغيره ، وقد بدأت أم كلثوم موسمها الغنائى الثانى فى عام ١٩٢٤ فى صالة "سانتى" واستهلته بمونولوج من تأليف رامى عنوانه (خايف يكون حبك ليّه) من تلحين صبرى النحريرى وظلت علاقة أم كلثوم ورامى تزداد وثوقا ولم يفترقا منذ ذلك الوقت ، فكتب لها أكثر من ٢٥٠ قصيدة غنائية اختارت منها ما راق لها . وكان لاتصال رامى بأم كلثوم أكبر الأثر فى النهوض بالأغنية المصرية ، فبعد أن كانت تتميز بالإباحية فى التعبير بدأ رامى بشعره يحبب القصيدة الفصحى إلى قلوب العامة معتمدا فى ذلك على جمال صوت أم كلثوم وبديع نظمه وحلاوة عباراته . ونتيجة لذلك أخذت شخصية أم كلثوم الفنية فى التبلور ، كما أخذ صوتها يجذب جمهور المستمعين ، وعباقرة الملحنين الذين اكتشفوا قدراته واستطاعوا من خلاله أن يقدموا أجمل وأرقى ما عرفته الموسيقى العربية من ألحان هذا العصر[٣] والذى كانت حنجرة أم كلثوم ناطقة بإبداعاتهم وكان من أبرز هؤلاء محمد القصبجى [٤]

---

(١) رجاء النقاش : لغز أم كلثوم ، مرجع سابق ص ٢٤ .

(٢) ولد فى ١٩ أغسطس ١٨٩٢ بحى السيدة زينب بالقاهرة ، وتخرج فى مدرسة المعلمين العليا ، والتحق بوظيفة فى قسم الفهارس بدار الكتب ، وصدر له أول دواوينه فى عام ١٩١٨ ، سافر فى بعثه إلى باريس لدراسة الفارسية ، وفى عام ١٩٢٤ عين مستشارا فنيا بالإذاعة وعضوا بلجنتى الشعر والفنون الشعبية بالمجلس الأعلى للفنون والآداب .

(٣) سهير عبد الفتاح : مرجع سابق ص ٢٢ .

(٤) ولد مع سيد درويش فى عام واحد (١٨٩٢) ودرس فى كتاتيب الأزهر ثم درس أصول الموسيقى العربية والعزف على العود ، والتحق بمدرسة المعلمين الأولية ، وكان ظهور أم كلثوم بمثابة نقطة تحول فى حياته الفنية ، كما كان تطعيمه للموسيقى العربية بالموسيقى الغربية أثرا فى إبراز طبقات أم كلثوم الصوتية .

الذى خلع عمامته وجبته ولبس البدلة وكان فى مقدمة المجددين فى فن الغناء وقد قدم لأم كلثوم فى أوائل العشرينيات أكثر من ثلاثين لحنا ، كانت عبارة عن محاولات وتجارب استفاد فيها من أساليب الفنون الغربية والشرقية بما فيها الأساليب التركيه ، ويعتبر مونولوج "إن كنت أسامح" الذى لحنه لأم كلثوم أعلى صيحة فى التجديد الغنائى ، وقد سار على منواله كل من رياض السنباطى[1] وزكريا أحمد[2] وداود حسنى[3] ، والدكتور أحمد صبرى النحريرى[4] ومحمد عبد الوهاب ومحمد الموجى وكمال الطويل وسيد مكاوى وبليغ حمدى وغيره • وكانت ألحان كل منهم لأم كلثوم لا ينازعهم فيها أحد ، خاصة وأنها كانت كالنحلة التى تأخذ من كل وردة رحيقها • وقد كانت علاقة أم كلثوم بملحينها علاقة من نوع خاص فهى لا تغنى اللحن فقط ، بل تلهم الملحن وتنشر ألحانه فى الآفاق • ولم تكن شريكة عادية فى الأغنية بل كانت الطرف الأقوى نظرا لأنها قارئة ذكية تستطيع أن تستوعب معانى الكلمات على أعلى درجات الثقافة الفكرية لذلك ، كانت تختار الكلمات وتعدلها أحيانا مهما كان الشاعر الذى يؤلف أغانيها ، يضاف إلى ذلك أنه كان لها رؤيتها فى اختيار الكلمات دون مجاملة لأحد على حساب فنها الأصيل ، فلم يعرف عن أم كلثوم أنه كان لها شلة من مؤلفى الأغانى الذين يحاصرونها بأعمالهم بل كانت تختار من دواوين الشعر التى كانت تقتنيها فى مكتبتها الخاصة ما يتلاءم مع رغبتها سواء كانت على صلة بهذا الشاعر أو ذاك وأبرز الأمثلة على ذلك ما ذكره الشاعر السودانى " الهادى آدم" عن قصة اختيار أم كلثوم لإحدى قصائده وهى قصيدة "أغدا ألقاك • ياخوف فؤادى من غدى" أنه فوجئ بوصول خطاب من سيدة الغناء باسمه تدعوه فيه للحضور إلى القاهرة للاستماع إلى إحدى قصائده التى اختارتها من

---

(1) كان أول لقاء للسنباطى بأم كلثوم فى عام ١٩٢٢ على رصيف محطة (درين) دقهلية خلال اشتراكها مع والدها فى سهراته ولياليه بإنشاد المدائح النبوية والقصائد الدينية ، ولم يكن يدرى أحد منهما أنه سيلتقى بالآخر مرة ثانية ، وستكون ثمار لقائهما تلك الروائع والبدائع اللحنية التى تزخر بها المكتبة الغنائية • أنظر • بريزم للموسيقى • التاريخ الفنى للموسيقار رياض السنباطى ص ١٠ •

(2) كان زكريا أحمد صاحب نصيب وافر فى رسم الحنجرة الذهبية لأم كلثوم ، وفى تشجيع والدها على العمل بالقاهرة •

(3) لحن داود حسنى لأم كلثوم مجموعة من الأدوار والطقاطيق ذات القيمة الفنية العالية •

(4) طبيب أسنان وملحن وتعاملت معه أم كلثوم فى بدايه حياتها الفنية وقبل احترافها الغناء •

ديوانه الذى لم يرسله إليها بل كانت قد اشترته رغم أن أغلى أمنياته التى لم يكن قد تمكن من تحقيقها قبل ذلك هو الاستماع إلى أم كلثوم فى أى من حفلاتها[1] .

وإلى جانب ذلك فقد كانت أم كلثوم تختار لحن أغانيها وتتصرف فيه وتفرض صوتها عليه [2] وليس أدل على ذلك من أنها كانت تتحكم فى ألحان أغانيها ، فكان يمكنها وهى تغنى أن تطيل فيه أو تختصره إذا أرادت ، وكانت الآلات الموسيقية غالباً تخفت أصواتها عندما يرتفع صوت أم كلثوم بالغناء . لقد كان دور أم كلثوم فى الارتقاء بالغناء المصرى إلى مستوى شاعرى أكثر نبلا ، ويتضح ذلك فى أنها جعلت الجمهور ينتقل من مستوى الأغانى المبتذلة ذات الدلالات والإيحاءات الهابطة ، والميوعة والتأوهات مثل :

"هات القزازه واقعد لاعبنى" و"ارخى الستارة اللى فى ريحنا أحسن جيراننا تجرحنا"

و"عصفورى يا أمه عصفورى لا ألعب وأورى له أمورى"
و "يوم ما عضتنى العضة وجابولى طاسة الخضة"
و "أبيع هدومى علشان بوسه من خدك القشدة يا ملبن
يا حلوة زى البسبوسه يا مهلبية كمان وأحسن"
و"اشبكها واحبكها بدبوس وانزل على صورتك واعض وأبوس

حتتك بتتك وتعاليلى يا بطه ، وتعال يا شاطر نروح القناطر ، وغير ذلك من الأغانى الرخيصة التى تعبر عن تفسخ المجتمع وتفشى روح الانحلال فيه والتى كانت تجد شهرة ورواجاً لا قبل لأحد بمقاومتها إلى مستوى القصائد ، والشعر الراقى ودنيا الطرب الأصيل مثل "إن حالى فى هواها عجب" أو رباعيات الخيام[3] .

وعلى الرغم من أن هذا الطريق لم يكن سهلا ، خاصة وأن الاتجاه السائد لدى الفن فى ذلك الوقت كان يميل إلى أن يسود الذوق الرخيص ، وانحدار القيم ، فإن الحرب بدأت تشتعل ضد أم كلثوم من جهات عديدة ومع ذلك فقد حرصت على أن تبدأ عصرا جديدا

---

(1) مصطفى الضمرانى : قضايا ثقافية معاصرة ص ٦٧ – ٦٨ .
(2) سهير عبد الفتاح : مرجع سابق ص ٦٦ .
(3) المصور : تصريح لأم كلثوم فى ١٩٧٥/٢/٧ ص ٢ .

من الغناء ، وأن تتمسك بما تؤمن به وأن تبتعد عن الأغانى منخفضة المستوى والتى كانت شائعة فى الأربعينيات وعلى الرغم من مطالبة البعض لها أن تغنى أغانى من اللون الذى كان سائدا فى ذلك الوقت ومحاولتهم المستمرة للضغط عليها[١] فقد استطاعت أم كلثوم أن تنتصر على تيار الأغانى المبتذلة ، ورفضت تماما أن تستسلم لهذا النوع من الأغانى ، وظلت تبحث عن نصوص غنائية نقية رفيعة مهذبة ، فغنت لأمير الشعراء أحمد شوقى[٢] الذى وجدت فى شعره معينا سلسبيلا ولشاعر النيل حافظ إبراهيم [٣] ولأبى فراس الحمدانى وغيرهم ونتيجة لبروز أم كلثوم فى مسرح الغناء ، ومنافستها لمعاصريها فقد تعرضت للعديد من الافتراءات والإتهامات فى محاولة من بعض منافسيها للإساءة إليها فى شخصها وإشغالها عن فنها ، فادعى رجل من ذوى الأملاك بقنا يدعى "عبد الستار الهلالى" زورا أنها زوجته ، ولم تعرف أم كلثوم بقصة هذا الزواج إلا عن طريق إعلان على يد محضر يطالبها فيه هذا الرجل أمام محكمة عابدين بالعودة إلى عصمته ، ولما لم تتضح صحة دعواه نال نصيبه من العدالة ، وإلى جانب ذلك فإنه نتيجة لنجاحها الكبير تعرضت للكثير من المضايقات التليفونية التى كانت ترهق أعصابها ، كما حاولت منيرة المهدية سلطانه الطرب وقتذاك الإطاحة بأم كلثوم التى اعتبرتها المنافسة الأولى لها وكانت وسيلتها إلى ذلك محاولتها اصطناع نسخة أخرى من أم كلثوم فتنزل إحدى الفتيات مرتدية الكوفية والعقال على رأسها كما كانت تفعل أم كلثوم فى بداية حياتها الفنية ويقف من خلفها التخت وتردد بعض الأغانى الدينية والطقاطيق متحدية بذلك أم كلثوم الحقيقية ، وإزاء ذلك اضطرت أم كلثوم إلى توزيع إعلانات باليد ، نشرتها

---

(١) يؤكد ذلك أن أم كلثوم جاءت فى المرتبة الثالثة فى الاستفتاء الذى جرى فى عام ١٩٢٦ عن أحب المطربات فكانت الأولى منيرة المهدية ، والثانية فتحية أحمد ، وكانت الثالثة أم كلثوم .
أحمد زكى عبد الحليم : نساء فوق القمة ، القاهرة ، دار الفيصل ١٩٨٧ ص ١١٨ .

(٢) بادر شوقى بكتابة قصيدته الوجدانية البارعة "سلو كئوس الطلا" فكانت أول قصيدة من شعره حفظتها أم كلثوم فى عام ١٩٣١ ثم غنت له" الملك بين يديك فى إقباله" وقصيدة "ريم على القاع بين البان والعلم" والتى سماها شوقى "نهج البردة" لأنه نسج فيها على منوال قصيدة البردة للبوصيرى ، وإلى جانب ذلك فقد اختارت أم كلثوم من ديوان شوقى ما يطابق الأحداث التى مرت بها مصر لغنائها ومنها قصيدة النيل ، وقصيدة إلى عرفات الله . والاشتراكيون أنت إمامهم .

(٣) يروى أن أم كلثوم كانت على صلة بحافظ إبراهيم وعبد العزيز البشرى وكان لها معهما ومع أصدقائهما جولات وحكايات ، وتعلمت منهما فنون الأدب وفنون النكتة أيضا .
للتفاصيل أنظر عبد العاطى كيوان : الفكاهة والسخرية عند حافظ إبراهيم القاهرة ، النهضة المصرية ١٩٩٧ ص ٦٣ .

الصحف بعد ذلك تحذر جمهورها من المقلدة لها ، كما كانت تكتب فى إعلانات حفلاتها أم كلثوم الأصلية ، على أن هذه الحرب لم تستمر طويلا ، فقد شقت أم كلثوم طريقها بخطى قوية دون أن تلتف وراءها واختفت الفتاة الأخرى ، حيث لا يصح إلا الصحيح خاصة وأن أم كلثوم استطاعت الصمود ، ووقفت كالطود الشامخ تتكسر الأمواج عند قدميها ، وصمدت أمام كل الدعاوى لتتساقط كأوراق الخريف ، لا تهتم إلا بفنها حتى انقشعت كل سحابات الصيف تحت حرارة فنها وصوتها الجميل ٠

أم كلثوم والسينما :

عندما بدأ العصر الذهبى للسينما المصرية بافتتاح ستوديو مصر ١٢ أكتوبر ١٩٣٥ بدأ استخدام الموسيقى والغناء كعنصر فنى فى التأثير على المتفرجين ، فاستهل إنتاجه الأول بفيلم تاريخى غنائى قامت أم كلثوم ببطولته وعنوانه "وداد" الذى عرض فى ١٠ فبراير سنة ١٩٣٦ وكانت قصته من تأليف "أحمد رامى" وسيناريو أحمد بدرخان وقد مثلت فيه أم كلثوم دور الجارية "وداد" المغنية فى عصر المماليك ٠ وكان هذا الفيلم بمثابة فرصة للتجارب المتحفظة فى التلحين الجديد ، وفيه وقفت أم كلثوم لأول مرة ليشكل صوتها بداية الأغنية السينمائية الخفيفة ، وأدت دورها بفطرتها السليمة بكل إبداع واقتناع ، وغنت فيه خمس أغنيات تبارى فى تلحينها زكريا أحمد ومحمد القصبجى ورياض السنباطى وكانت كلها من نظم أحمد رامى ، وهى "يا طير يا عايش أسير" ,"ياللى ودادى صفالك" من تلحين القصبجى و"يا بشير الأنس" و"يا ليل نجومك شهود" لزكريا أحمد و"البحر زاد يا فرحنا" و"حيوا الربيع عيد الزهور" لرياض السنباطى" ٠

كما تضمن الفيلم مقطوعة موسيقية أطلق عليها فيما بعد "رقصة شانغهاى" وطقطوقة مشهورة لحنها رياض السنباطى بعنوان : "على بلد المحبوب وديني" [1] وكان فيلمها الثانى "نشيد الأمل" الذى عرض فى ١١ يناير ١٩٣٧ وهو من إنتاج شركة "أفلام الشرق" ومثلت فيه أم كلثوم دور سيدة عصرية اسمها "آمال" كانت تتمتع بصوت جميل واتجهت للعمل بالسينما وغنت فيه سبع أُغنيات كانت كلها من نظم أحمد رامى قام القصبجى بتلحين أربع أغنيات منها :

وهى "يا مجد ياما اشتهيتك" و"ياللى صنعت الجميل" و "منيت شبابى" "وأغنية الطفل" وقام السنباطى بتلحين الأغنيات الثلاث الباقية ، هى مونولوج "قضيت حياتى

---

(١) بريزم للموسيقى : التاريخ الفنى للموسيقار رياض السنباطى ص ١٢ ٠

حيرى عليك" و"تشيد الجامعة" وطقطوقه "إفرح يا قلبى" وقام الفنان عزيز صادق بالتوزيع الموسيقى للأغانى فكانت هذه هى أول مرة تغنى أم كلثوم ألحانا موزعة موسيقياً ٠

وكان الفيلم الثالث هو فيلم "دنانير" الذى عرض فى ٢٩ سبتمبر ١٩٤٠ وكان من إنتاج ستوديو مصر وهو عن قصة وحوار وأغانى أحمد رامى وإخراج أحمد بدرخان وقد مثلت فيه أم كلثوم دور "دنانير" الجارية العباسية" التى عاشت فى عصر الرشيد ، واستطاعت تأديته بإبداع وغنت فيه عدة أغنيات ذات ألوان متعددة كأغنية الشريف الرضى "قولى لطيفك ينثنى" التى غنتها فى مقامات مختلفة ، متدرجة فيها من نغمة إلى أخرى بكل روعة واقتدار وكانت هذه الأغنية إحدى ثلاث أغنيات لزكريا أحمد ، وكانت الثانية "القصر المهجور" والثالثة "بكره السفر" وتضمن الفيلم أغنيتى "ياليلة العيد" و"أنشودة بغداد" للسنباطى وثلاثة ألحان أخرى للقصبجى وهى "الزهر فى الروض تبسم" و"يا فؤادى غنى" و"أنشودة النبع" ٠

وجاء بعد ذلك الفيلم الرابع "عايدة" الذى عرض فى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٢ وكان من إنتاج "شركة أفلام الشرق" عن قصة لعبد الوارث عسر وإخراج أحمد بدرخان ، وفيه ظهرت محاولة جريئة وهى استغلال صوت أم كلثوم القوى الرنان فى الغناء الأوبرالى ، لحن الفصل الأول منه محمد القصبجى ، وقام السنباطى بتلحين الفصل الثانى وقد مثلت أم كلثوم فى هذا الفيلم دور فتاه ريفية اسمها "عايدة" يقع فى غرامها ابن أحد الأغنياء ، وتقف الفوارق الطبقية عقبة أمام إتمام الزواج ٠ وقد غنت أم كلثوم في هذا الفيلم عدا ألحان الأوبرا مجموعة من ألحان السنباطى والقصبجى وزكريا أحمد منها "يا فرحة الأحباب" و"القطن" ٠

وكان الفيلم الخامس "سلاَّمة" الذى عرض يوم ٩ إبريل ١٩٤٥ وهو من إنتاج وسيناريو "توجو مزراحى" عن قصة من تأليف "على أحمد باكثير" والحوار والأغانى لبيرم التونسى وقد قامت فيه أم كلثوم بدور الجارية الأموية "سلاَّمة" التى اشتهرت منذ حداثة سنها بجمال الصوت ٠ وقد اشتمل الفيلم على تسع أغنيات كلها من نظم بيرم ما عدا قصيدتين هما "قالوا أحب القس " التى لحنها السنباطى وتنسب إلى الشعر القديم والثانية "يا بعيد الدار" لعباس بن الأحنف ٠ أما باقى الأغنيات فهى "غنى لى شوى شوى" و"قوللى ولا تخبيش يا زين" و"سلام الله على الأغنام" و"عينى يا عينى" و"برضاك" و"لغة الزهور" و"نور محياك" ٠ وإذا كان بيرم التونسى قد استأثر بنظم معظم أغانى الفيلم

فإن زكريا أحمد كان له نصيب الأسد فى التلحين إذ قام بتلحين ثمانى أغنيات بينما لحن الأغنية التاسعة رياض السنباطى وهى قصيدة "قالوا أحب القس" ٠

وفي هذا الفيلم ارتفعت أم كلثوم بفنها التمثيلى والغنائى إلى أرفع الدرجات فى الأداء والتعبير ولم تغن فيه تلك الأغنيات التسع فحسب ، بل قرأت أيضا ولأول مرة على الشاشة آية قرآنية من "سورة إبراهيم" اهتزت لها القلوب بالخشوع والإيمان ٠

أما الفيلم السادس والأخير فكان "فاطمة" الذى عرض فى ١٠ ديسمبر ١٩٤٧ ومثلته وهى فى سن الثالثة والأربعين وهو الفيلم الذى اعتزلت بعده السينما وكان من إنتاج ستوديو مصر ومن إخراج "أحمد بدرخان" وتأليف "مصطفى أمين" وقد مثلت فيه دور "فاطمة" الممرضة الفقيرة التى تزوجت بعقد عرفى من ابن أحد الأثرياء ٠ وقد غنت أم كلثوم فى هذا الفيلم تسع أغنيات اتجهت فى ثلاث منها إلى الأغنية الجماعية التى اشترك معها فى غنائها أفراد "الكورال" وهى "نورك يا ست الكل" لبيرم التونسى والقصبجى و"نصرة قوية" لبيرم وزكريا أحمد و"ظلمونى الناس" لبيرم والسنباطى ٠

وتضمنت الأغنيات الأخرى ثلاث أغنيات تفيض بالبهجة والمرح وحب الحياة لبيرم أيضا وهى "يا صباح الخير" للقصبجى ، و"لغة الزهور" و"جمال الدنيا" لزكريا أحمد بجانب أغنيتين حزينتين هما "أصون كرامتى" لرامى والسنباطى و"اليتيم" لرامى والقصبجى ٠ أما الموسيقى التصويرية فى جميع أفلام أم كلثوم فقد وضعها "محمد حسن الشجاعى[١] " ما عدا موسيقى فيلم نشيد الأمل التى كانت من وضع عزيز صادق[٢] ٠

والجدير بالذكر أن إعجاب الناس بهذه الأفلام ، واقتناع الجماهير بأدوار أم كلثوم ، لا يرجع إلى قصة الفيلم أو الأداء التمثيلى أو بمدى التحام الغناء بقصة الفيلم أو الأداء التمثيلى بمقدار ما يعود إلى سحر شخصية أم كلثوم والأغانى الرائعة التى قدمتها ٠

---

(١) ولد في إحدى قرى كفر الزيات فى عام ١٨٩٩ ، وعشق الموسيقى التصويرية ، وعين مستشارا فنيا للموسيقى والغناء فى الإذاعة المصرية ، وبدأ فى التأليف الموسيقى للموسيقى التصويرية للكثير من الأفلام السينمائية كما وزع بعض أوبريتات سيد درويش مثل شهر زاد والعشرة الطيبة ورحل عن دنيانا فى العاشر من يونيو ١٩٦٣ ٠
أنظر : التأليف الموسيقى المصرى المعاصر جـ١ ص ١٣٤-١٣٨ ٠

(٢) محمد السيد شوشة : رواد ورائدات السينما المصرية ، القاهرة ، روز اليوسف ١٩٧٨ ص ٥٤-٦٠ ٠

وقد ظل الفيلم الغنائى يحتل المقدمة طوال الأربعينيات والخمسينيات ، واستطاع أن يؤثر تأثيراً قويا فى الأغنية العربية سواء من ناحية الكلمات أو اللحن أو الأداء الغنائى أو الموسيقى . ومع ذلك فإن أم كلثوم لم تربط مستقبلها بفن السينما بل سخرت فن السينما لشخصيتها الفنية المستقلة[١] واستطاعت أن تنسحب من الميدان فى الوقت المناسب لتعيش وتخلد على الستار الفضى فى أدوارها الخالدة [٢] .

حفلات أم كلثوم الشهرية :

فى الثلاثينيات من القرن الماضى وبعد أن أصبح الثمر يانعا فى بستان الغناء العربى كان صوت أم كلثوم هو أول صوت سجلته " الإذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية[٣] " في حفل خارجى عام ١٩٣٤ بعد أن تعاقدت معها على مشروع الحفل الشهرى المذاع مباشرة على الهواء[٤] ومن خلاله عرف المستمعون أم كلثوم على نطاق مصر كلها ، وانعقدت الألفة والمودة بين المستمع وأم كلثوم من خلال الراديو ، وأصبحت أغانيها متاحة لجموع الشعب بعد أن كانت مقتصرة على طبقة معينة منه . وإلى جانب ذلك فإن حفلات أم كلثوم الشهرية كان لها أكبر الأثر فى تقديم فنها المتجدد فى كل حفلة من هذه الحفلات التى كانت تعد بمثابة حفلات قومية ، فالجميع ينتظرون الخميس الأول من كل شهر[٥] . حيث يلتف حول صوتها ملايين المستمعين ليس المصريين الذين يتجمعون فى المقاهى والبيوت لقضاء السهرة كلها معها فحسب بل والعرب أيضا الذين جمعتهم أم كلثوم على الحب والفن ، ووضعت رؤوسهم على أيديهم ليقولوا فى نفس واحد "الله الله يا ست" فشوارع القاهرة المزدحمة دائما كان يهدأ فيها الضجيج فجأة وتخلو من المارة فى انتظار سماع أم كلثوم على موجات الأثير التى تتفرغ لها ، وتذيع أغانيها بما فيها من ضوضاء وتصفيق . والناس فى العالم العربى على مختلف أعمارهم ومستوياتهم يتوقفون عن أسمارهم وأعمالهم فيضطر الشيوخ إلى الكف عن لعب الطاولة فى مقاهى الدار البيضاء وفى بغداد ودمشق وعمان وغيرها ويحولون موجات محطات إذاعة بلادهم

---

(١) سهير عبد الفتاح : مرجع سابق ص ٥٤ .

(٢) شوشه : مرجع سابق ص ٦٠ .

(٣) فى عام ١٩٣٤ حلت الإذاعة الحكومية محل الإذاعات الأهلية ، وكان الأستاذ سعيد لطفى أول مدير لها ، وكانت مدة الإذاعة اليومية ١٢ ساعة .

(٤) إلياس سحاب : أم كلثوم وملحنوها دراسة بوجهات نظر فى مارس ٢٠٠١ ص ٥٥ .

(٥) كانت أم كلثوم تبدأ السنة الغنائية بحفلتها فى الخميس الأول من أكتوبر وتتوقف فى الصيف مع الراحة والاصطياف .

إلى موجات إذاعة القاهرة للاستماع إلى نجمة وقيثارة الشرق أم كلثوم فى برنامج مدته خمس ساعات أو يزيد [١] ، يضاف إلى ذلك أن حفلات أم كلثوم كانت الفرصة الأنيقة لكل سيدات المجتمع فيرتدين أشيك وأجمل ما عندهن ، حفلات تؤدى ليس فقط إلى رواج الكوافيرات والتاكسيات والترزية والمطاعم والفنادق ، بل كانت تؤدى أيضا إلى رواج شركات السياحة وشركات الطيران التى تحمل من كل العالم عشاقا لصوتها مرة كل شهر[٢] يحضرون إلى القاهرة لمشاهدة أم كلثوم وهى تتحرك فوق المسرح وتهتز بمنديلها الأبيض ، وكل حركة منه ومن يدها عبارة عن إشارة بدء وتجويد لمن يجلس خلفها من أعضاء فرقتها الموسيقية الذين حفظوا هذه الإشارات وكأنها قائد لفرقة موسيقية من النوع النادر ، ولكى ينسوا الدنيا كلها مع سحر غنائها الرائع ، وصوتها الساحر وحنجرتها القديرة التى تفوق الوصف ، والتى تنبض بالحب والآسى بحس عاطفى يجعل الكثير من مستمعيها يبكون فى كثير من الأحيان ، ويطالبونها بإعادة كوبليهات معينة • وبعد أن ظهر التلفزيون فى مصر عام ١٩٦٠ نجحت حفلات أم كلثوم التى قدمها التلفزيون نجاحا باهرا ، وظل صوتها قويا خفاقا فصيحا نقيا ، وكان الإعجاب بصوتها ظاهرة شملت العالم العربى كله بمختلف بيئاته وظروفه الاجتماعية والتاريخية • كما أن أغانيها ساهمت بشكل كبير فى تدعيم اللغة العربية الفصحى خاصة وأن أداءها للحروف والكلمات كان أداء سليما يتميز بالوضوح والصفاء الكامل حتى قال عبد الوهاب فى حديث له عنها : إنها كانت فصيحة النطق بمعنى أنها حين تنطق جملة فإن الجملة تبلغ أذنك حرفا حرفا كل حرف قائم بذاته وله موسيقاه الخاصة كما أن أغانيها العامية كانت أقرب إلى العربية الفصحى ، ومعنى ذلك أنها لم تكن مطربه المثقفين فحسب بل كانت مطربة كل الناطقين بلغة الضاد ، وإلى جانب ذلك فقد كان صوتها من الأصوات الخصبة الذكية التى تزغرد ، ولا نظن أن أحدا خدم الفصحى من المطربين كما فعلت أم كلثوم سواء فى قصائد العشرينيات ذات الألحان العالية التى غنتها أو فى قصائد الستينيات ذات القراءة الموسيقية ولا أحدا كانت رقعة التسابيح الدينية واسعة عنده مثل أم كلثوم التى غنت "نهج البردة" و"سلو قلبى" و"إلى عرفات الله" و"ولد الهـدى[٣] " ، ولا أحد غنى

---

(١) رجاء النقاش : لغز أم كلثوم ص ١١ – ١٢ •

(٢) أنيس منصور : عاشوا فى حياتى ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٢ ص ٦٥٦ •

(٣) لحن السنباطى هذه الأغانى لأم كلثوم بدءا من عام ١٩٤٦ •

انظر : التاريخ الغنى للموسيقار رياض السنباطى ص ١٧ •

للحركة الوطنية سواء فى مصر أو العالم العربى مثل أم كلثوم التى غنت لوطنها سواء فى أفراحه أو أتراحه ٠

أغاني أم كلثوم الوطنية :

لقد استطاعت أم كلثوم بشخصيتها وقوة إرادتها وصوتها الجميل ونشاطها أن ترتقى بفن الغناء العربى وفق تخطيط مدروس وثقافة عالية ، وكان لها شخصية اجتماعية بارزة لها مكانتها ، تختار اللحن والكلمة دون مجاملة لأحد على فنها الأصيل ٠ كما كانت علما على أمة بأسرها من المحيط إلى الخليج ونغمة صافية للحب والسعادة بالنسبة للشعب العربى على مدى نصف قرن أو يزيد حتى لقبت بقيثارة السماء ، وبهدية السماء إلى العواطف والوجدان ٠

وقد ظهر معدن أم كلثوم الأصيل خلال الأزمات التى تعرضت لها مصر والأمة العربية ويظهر ذلك جليا فى أغانيها الوطنية ، فقد واكبت أم كلثوم الحركة الوطنية وكان لها فيها نصيب كبير فغنت لذكرى سعد زغلول وأنشدت لفلسطين ولأبطال الفالوجا [١] ، ولأعياد مصر الوطنية جميعا قبل وبعد الثورة وكان "نشيد الجامعة" الذى كتبه رامى ولحنه السنباطى وغنته أم كلثوم فى فيلم "نشيد الأمل" عام ١٩٣٦ من أوائل هذه الأناشيد وكان مطلعه يا شباب النبيل ، يا عماد الجيل ، هذه مصر تناديكم فلبوا دعوة الداعى إلى القصد النبيل ، ثم جاء فن صناعة السينما ليضيف بعدا هاما فى حياة أم كلثوم الفنية ، ففى فيلم "دنانير" غنت أم كلثوم نشيدا عن بغداد ولم تقتصر أم كلثوم على غناء الأناشيد الحماسية فى أفلامها فغنت فى فيلم "عايدة" عن القطن المصرى أغنية مطلعها :

أبيض ومنور على عوده يحيى الأمل عند وجوده

وعند تأسيس الجامعة العربية فى عام ١٩٤٥ غنت أم كلثوم أغنية بهذه المناسبة كان من أبياتها أن العروبة فيما بيننا نسب ٠ وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ومطالبة المصريين بجلاء الإنجليز الكامل عن مصر غنت أم كلثوم ٠

وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

---

(١) أقامت أم كلثوم حفلة فى منزلها لأبطال الفالوجا الذين حوصروا خلال حرب فلسطين ١٩٤٨ وكان عبد الناصر أحدهم ٠

وعندما طالب المصريون بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ وبرزت العمليات الفدائية فى منطقة القنال غنت أم كلثوم أبياتا من قصيدة حافظ إبراهيم ، وتلحين السنباطى منها ٠

وقف الخلق ينظرون جميعًا كيف أبنى قواعد المجد وحدى

وبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ غنت أم كلثوم قصيدة من شعر أحمد رامى وألحان رياض السنباطى مطلعها ٠

مصر التى فى خاطرى وفى فمى أحبها من كل روحى ودمى

ثم تدفقت أغانى أم كلثوم الوطنية ويظهر ذلك جليا مع تطورات الأحداث ، ففى حادث المنشية غنت أم كلثوم "يا جمال يا مثال الوطنية" وعند وقوع العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ غنت نشيد "والله زمان يا سلاحى" على أضواء الشموع وأثناء دوى صفارات الإنذار المنذرة بغارة جديدة على القاهرة ، وتمكنت من تسجيل هذا النشيد الذى أصبح النشيد الوطنى لمصر قبل تغييره بنشيد "بلادى بلادى" وإلى جانب ذلك غنت أم كلثوم محلاك يا مصرى ، وثوار ، وطوف وشوف ، وعلى باب مصر ، والحب الكبير[1]، وأصبح عندى الآن بندقية ، وكلها أغانى رصدت تاريخنا الوطنى وجعلت العديد من الشباب عندما يستمعون إلى مثل هذه الأغانى يستفسرون عن كتب التاريخ عن حقيقة ما حدث وحينما وقعت نكسة ١٩٦٧ أعلنت أم كلثوم اعتزالها الغناء بحجة أنها فقدت شهيتها للغناء بعد الهزيمة ثم عدلت عن ذلك القرار تحت إلحاح الكثيرين وعادت من أجل أن تضع صوتها فى خدمة المعركة فظهر معدنها الأصيل عندما طلبت من عشاق فنها أن يتبرعوا بالذهب ٠٠ بالدبل والأساور والأقراط من أجل المجهود الحربى وتبرع الناس بأغلى ما يملكون كما قامت أم كلثوم بجولات فنية متنوعه داخل مصر وخارجها لجمع الأموال والمعادن النفيسة من أجل دعم المجهود الحربى فغنت فى دمنهور وجمعت ٢٨٣ ألف جنيه ، وغنت فى المنصورة وجمعت ١٢٠ ألف جنيه وغنت فى الإسكندرية وجمعت ١٠٠ ألف جنيه بخلاف السبائك الذهبية التى كان يتبرع بها الناس ، كما جابت أم كلثوم العديد من البلدان العربية لهذا الغرض فزارت المغرب وتونس والكويت ولبنان والسودان وليبيا لجمع الملايين للمجهود الحربى ، كما سافرت إلى باريس لتغنى من أجل إيقاظ النخوة العربية وأودعت كل ما جمعته للمجهود الحربى ٠

---

(١) حنفى المحلاوى : سيدتان من مصر ، خفايا الصراع بين أم كلثوم وجيهان السادات ، القاهرة ، دار الشباب العربى ١٩٩٤ ص ٢٨-٢٩ ٠

وخلال ذلك لاقت أم كلثوم استقبالا رائعا من شعوب هذه البلاد وحكوماتها ، كما لقيت حُبًّا وترحيباً وتكريما فاق الوصف والتصور . فأم كلثوم تحمل الفن الجميل الجاد الأصيل إلى الوجدان والثقافة فى مجتمعنا العربى . وإلى جانب ذلك قامت أم كلثوم بزيارة الجنود الجرحى فى المستشفيات أثناء وبعد الحملات العسكرية تبث فيهم الأمل وتوزع عليهم الهدايا . ولم تتوقف جهود أم كلثوم على ذلك فبعد انتصارات أكتوبر ١٩٧٣ وكانت الشيخوخة قد بدأت تزحف عليها حاولت حصر جهودها فى التبرع بالأموال لمشروع يحمل اسمها وهو "مشروع أم كلثوم للخير" لخدمة جرحى الحرب ولكنه لم ير النور لمنافسة "مشروع الوفاء والأمل" له والذى نجحت السيدة جيهان السادات فى إقامته ، وهكذا خدمت أم كلثوم وطنها ، ووقفت بجانبه خلال المحن وقدمت له العون كل العون من خلال فنها ، وكان عطاؤها بلا حدود .

أم كلثوم ملحناً :

لقد غنت أم كلثوم فى حياتها الفنية حوالى ٧٠٠ أغنية قدمت من خلالها لجمهورها قيما دينية ووطنية عبرت فيها عن صورة متكاملة من الحب الإلهى ، وحب الوطن وحب الحبيب وكان حبها فى كل الحالات شامخا قويا يبشر بأنبل القيم وأغلاها ، كما يبشر بالرغبة فى خلق بيئة ثقافية وفنية وأخلاقية راقية ، وفى ازدهار الآمال المتفتحة فى القلوب حتى أصبحت جزءا من وجدان هذا الشعب الذى أطلق عليها اسم "سومة" تدليلا لها وتحببا فيها ، ولحنَّ لها كبار الملحنين . والسؤال المطروح هو هل فكرت أم كلثوم فى التلحين كما فعل عبد الوهاب وغيره ؟ والواقع أن هذا السؤال سأله لها الصحفى المعروف فكرى أباظه بقوله ألم تفكرى مرة فى أن تضربى بأناملك الرقيقة على العود أو القانون أو تلحنى ؟ فكان جوابها "إننى من المعتنقين مبدأ "ما لقيصر لقيصر وما لله لله " فضلا عن أننى مهما تدربت على العود أو القانون فلن أطاول أفذاذ الملحنين . فهل هذا يعنى أنها لم تفكر فى التلحين لقناعتها أن هناك من هو أقدر منها على ذلك[١] ؟ الواقع أن لأم كلثوم محاولات فى التلحين كانت قد بدأتها مبكرة ففى عام ١٩٢٨ لحنت طقطوقه "على عينى الهجر" من كلمات أحمد رامى وفى عام ١٩٣٦ لحنت مونولوج" يا نسيم الفجر" وإلى جانب ذلك يذكر عبد الوهاب أن محمد القصبجى الملحن الكبير كان يدرب أم كلثوم على العود حتى فترة قريبة قبل وفاته[٢] .

---

(١) رجاء القاش : مرجع سابق ص ٣٠-٣١ .

(٢) ضمن حوار سعد الدين وهبة مع محمد عبد الوهاب . أنظر النهر الخالد ، الكويت ، دار سعاد الصباح ، ١٩٩٢ ، ص ٤١ .

أم كلثوم والمسرح الغنائى :

أخذ البعض على أم كلثوم ابتعادها عن المشاركة فى المسرح الغنائى ، ومحاولة بناء أوبرا مصرية • وكان رد أم كلثوم هو أن المسرح الغنائى فى مصر لم يكن أوبرا ولا أوبريتا ولا غناء مسرحيا بالمعنى المفهوم بل كان مجرد أغانى فوق المسرح لا تنسجم مع القصه المسرحية ، فكانت الأغنية تسير فى جانب والموسيقى فى جانب والقصة نفسها فى جانب ثالث ولا يربط بين هذه العناصر الثلاثة أى صلة ، وأنها لا تقبل هذا الأسلوب فى الغناء • وقد حددت أم كلثوم النموذج الأوبرالى الواجب تقديمه فى مصر فقالت "نحن نستطيع بالموسيقى الشرقية والآلات الشرقية أن نقدم أوبرا صادرة عن تراثنا وحياتنا تبهر العالم كله" ولخصت ذلك فى النقاط التالية :

١- إستلهام روح التراث الموسيقى القديم وربطه بواقع الحياة المصرية •

٢- إعداد أصوات مختلفة لتشترك فى الغناء وإعداد كورس غنائى مدرب •

٣- المحافظة على الآلات الشرقية والمقامات الموجودة فى الموسيقى الشرقية ولا توجد فى الغربية •

وإذا تحققت هذه الظروف كلها سيظهر مولد أوبرا مصرية كفن حقيقى[١] •

أم كلثوم في ميزان النقد :

ترددت الأقوال عن منع أم كلثوم من الغناء ، ومنع أغانيها من الإذاعة فى بداية الثورة لأنها من العهد البائد كما ترددت أقوال أخرى حول اختيار أم كلثوم لكلمات أغانيها المليئة بالذل والهوان والاستسلام •

وحول ما تردد من منعها من الغناء بعد قيام الثورة نظرا لعلاقتها بالقصر الملكى ومنحها وسام الكمال لمشاركتها فى الاحتفالات الخاصة بميلاد الملك وعيد الجلوس وإعدادها الأغانى الخاصة بمثل هذه المناسبات الملكية مثل (يا مليك النيل ١٩٣٧) و (عيد الدهر ١٩٣٧) و(يا ربوع النيل ١٩٣٨) و(يا بهجة الروح ١٩٤٠) و(يا مليكى ١٩٤٣) و(مولد الفاروق ١٩٤٦) الخ •

هذا إلى جانب قيام الملك فاروق بتكريمها فى عام ١٩٤٥ بعد أن غنت له أغنية "فى أوان الورد" والتى اختتمتها بكلمات :

---

(١) خيرى شلبى : مرجع سابق ص ٩٨-٩٩ •

أعيـــاد فـــى كـــل مكـــان

بيـــك يـــا فـــاروق تـــزدان

متجمعـــــــة فـــــــى أوان

فيـــه الوجـــود فرحـــان

فـــــــى أوان الـــــــورد[1]

وأنه نتيجة لذلك وعلى الرغم من محاولات أم كلثوم إعلان تأييدها للثورة عند قيامها وذهابها إلى الإذاعة لتشرف بنفسها على حذف بعض الفقرات الخاصة بالعهد الملكى من أغانيها ، ولا نتزاع كل ما يتصل بفاروق وعهده من كلمات ، وقيامها بغناء قصيدة صوت الوطن فى أكتوبر ١٩٥٢ [2] فإن كل ذلك لم يشفع لها ، فقد تم بأمر من وزير الإرشاد فى حكومة الثورة منع أغانيها من محطات الإذاعة المصرية باعتبارها أحد رموز النظام الملكى السابق حتى تدخل جمال عبد الناصر فور علمه بالقرار ، وأمر بإلغاء قرار المقاطعة فورا ، وإعادة إذاعة أغنيات أم كلثوم وإعادة حقوقها المادية عن إذاعة بعض أغانيها التى صاحبت بيانات الثورة[3] قائلا إذا كنتم تريدون منع أم كلثوم من الغناء اهدموا الهرم الأكبر[4] .

هذا حول ما تردد عن منع أم كلثوم من الغناء عند قيام الثورة . أما عن تعرض البعض لنقد أغانى أم كلثوم فقد قال البعض أنها كانت تختار الأغنيات المليئة بالذل والهوان والحزن والتى تدعو إلى الاستسلام الجماعى من نوع (حتى الجفا محروم منه) وغيرها من الأغانى التى تذرف الدمع حزنا على فراق الحبيب ، وتذكر كمية ساعات الليل التى لم تر فيها العيون نوما شوقا إلى لقائه ، وقال آخرون أن خيالاتها الغنائية الطويلة جعلت الناس يتعاطون المخدرات وأنها تدعو إلى التعصب الدينى عن طريق أغانيها الدينية وأنها حجبت المواهب الغنائية عن الظهور ، والحقيقة غير ذلك فقد استطاعت أم كلثوم أن ترتقى بمستوى الفن الغنائى وحماية الذوق العام فى الوقت الذى

---

(١) نبيل حنفى : أم كلثوم بين عهدين . مقال بهلال فبراير ٢٠٠٢ ص ١٤٨-١٥١ .

(٢) مجلة الإذاعة المصرية . العدد ٩١٨ فى ١٩٥٢/١٠/١٨ .

(٣) حنفى المحلاوى : سيدتان من مصر ص ١٥٠-١٥١ .

(٤) وحول الروايات التى تناولت ذلك الموضوع أنظر سعيد عكاشة . عبد الناصر وأم كلثوم مقال فى هلال نوفمبر ٢٠٠١ ص ١٢٥-١٢٧ .

كانت فيه مطربات القاهرة المشهورات مجرد عوالم أو أسطوات يسطعن فى الأفراح والليالى الملاح، ويخلطن غنائهن البدائى برش الملح والزغاريد والرقص ، وأنه بالرغم من غياب أم كلثوم وانفتاح الأبواب أمام كل الأصوات ، فقد ظل مكانها شاغرا لا يستطيع أحد أن يملأه، وظلت أم كلثوم سيدة الغناء العربى بلا منازع ، فهى وإن كانت روحها قد ذهبت إلى دار البقاء ، فإنها لم تمت فنيا بل سوف تبقى ما دام الجمال متعه وهدفا

قصة أم كلثوم مع زكريا أحمد :

يحتل زكريا أحمد فى التسلسل التاريخى لملحنى أم كلثوم المركز الرابع بعد الشيخ أبو العلا ، والدكتور النحريرى ، ومحمد القصبجى ، ومع ذلك فإن دوره فى إبراز عبقريتها الغنائية كان أساسيا ويرجع أول لقاء بينهما إلى الثانى من يونيو ١٩١٩ فى بلدة السنبلاوين دقهلية حيث غنت له مع أخيها خالد . وبعد ذلك بثمانية أيام قام بزيارتها فى قريتها "طماى الزهايرة" وأقنع والدها الشيخ إبراهيم بأهمية انتقالها إلى القاهرة ، واحتراف الغناء ، والانتقال من الإنشاد الدينى إلى الإنشاد الدنيوى .

وقد لحن زكريا أحمد لأم كلثوم ٦٠ أغنية من الصيغ والقوالب الغنائية المختلفة كان أولها طقطوقة "اللى حبك يا هناه" فى مطلع الثلاثينيات و"جمالك ربنا يزيده" ثم لحن لها "أهل الهوى ياليل" و"أنا فى انتظارك" و"كل الأحبة إثنين إثنين[١] " كما تبارى فى تلحين معظم أفلامها مع القصبجى والسنباطى .

وعما أحدثته أم كلثوم من تأثير عليه كتب الشيخ زكريا يقول "أصبحت مفتونا بها ، لأننى أحببتها حب الفنان للحن الخالد" وذلك الاعتراف بافتتانه بها يفسر ما أودعه من روحه الحية فى الحانه لها[٢] .

لقد كان زكريا أحمد يقدر أم كلثوم تقديرا شخصيا كبيرا ، ويتغزل فى عبقرية صوتها معتبرا إياه هبة استثنائية من السماء كما كان يشيد بشخصيتها الفنية المؤثرة ، ويعتبرها خير من يؤدى ألحانه وبالرغم من ذلك فقد حدثت قطيعة بينهما استمرت عشر سنوات بسبب الأجر المادى وإصراره على الندية فى التعامل معها [٣] ولعب البعض دوراً مقصودا فى إساءة العلاقة بينهما حتى توترت الأمور ووصلت إلى أبواب المحاكم مما

---

(١) عبد الحميد زكى : مرجع سابق ص ٤٨ .

(٢) هشام فاروق : شيخ الملحنين وهواه الغلاب ، مقال بهلال أكتوبر ٢٠٠٠ ص ١٦٤ .

(٣) الياس سحاب : مقال فى وجهات نظر سبق ذكره ص ٥٤ .

أوقف ثمار التعاون بينهما حتى تدخل الرئيس عبد الناصر فى الأمر ، وأبدى أسفه ذات يوم لأم كلثوم من حرمان عشاق فنها وفن زكريا من تعاونهما معها ، فسعت لتصفية الخلاف إحتراماً لرغبة عبد الناصر ٠ وأمام المحكمة أبدى زكريا أحمد أمام القاضى إستعداده للتنازل عن القضية والتعاون مع أم كلثوم بلا شروط ، وبلا مقابل أيضا ٠ كما رحبت أم كلثوم بالتعاون مع الشيخ زكريا وبكل الشروط التى يطلبها ٠ وبعد أسابيع قدم زكريا أحمد لحنه لأغنية "هوّه صحيح الهوى غلاب" لأم كلثوم التى استقبلته فى بيتها بعد سنوات الفراق الطويلة ، وجلس زكريا أمامها وأمسك بعوده ، وراح يغنى كلمات اللحن :

هو صحيح الهوى غلاب ٠٠ ما عرفش أنا

وانتهى من أداء الأغنية التى تدور معانيها حول ما وراء الحب من أشجان وألم وندم لا يفيد ، وتحول نهار العشاق إلى ليل ، ولما سألته أم كلثوم ألم تلحن شيئا آخر ؟ وكان زكريا – الذى يعرف أم كلثوم جيدا – مستعدا للسؤال ، فأجابها على الفور : بلى ٠٠ وقد فعلت ! ثم غناها نفس الأغنية بلحن آخر ، مختلف تماما عن الأول وسمعته أم كلثوم فحارت بين اللحنين ، أيهما أجمل ٠ ولم يدعها زكريا لحيرتها طويلا ، وإنما قال لها بلهجة معبرة ٠ لن تغنى هذا اللحن ولا ذاك ، ولكن ستغنين هذا اللحن ! ثم أسمعها نفس الأغنية بلحن ثالث مختلف تماما عن اللحنين السابقين ، وهو اللحن الذى غنته للجماهير بعد ذلك ٠ وكان قد استعد به لمواجهة طبيعة أم كلثوم الفنية التى يعرفها عن ظهر قلب ٠ ويعرف عنها أنها لا تقنع أبدا بأول محاولة فنية ، فاستعد لها بتلحين الأغنية بثلاثة ألحان مختلفة حتى لا تطلب أى تعديل ٠ وشدت أم كلثوم بالنغم الأصيل بعد طول انقطاع٠ وطرب الناس له ٠٠ وتذكروا الأيام الجميلة التى كانت أم كلثوم لا تغنى فيها إلا من ألحان زكريا أحمد ٠ وتذكروا إفتتان زكريا أحمد بصوت أم كلثوم الذى لا يغيب عن باله ولكن العمر لم يمهل زكريا أحمد لكى يقدم لأم كلثوم مزيدا من هذا النغم الأصيل[١] . ففي ١٤ فبراير ١٩٦١ صعدت روح زكريا أحمد إلى بارئها بعد أن قدم العديد من الألحان الخالدة التى خلفها من عصارة قلبه واحساساته الفياضة التى لن تموت أبدا[٢] ٠

(١) عبد الوهاب مطاوع : عاشوا فى خيالى ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ١٩٩٩ ص ٩١ – ٩٢ ٠
(٢) عبد الحميد زكى : مرجع سابق ص ٤٨–٥٠ ٠

ليلى مراد

محمد فوزى

نجيب الريحانى

أسمهان

شكوكو

مقلدات أم كلثوم ومطربات عصرها

بعد رسوخ أسلوب أم كلثوم فى الغناء ، وتمكنها من فتح مغاليق الحس والتذوق الغنائى للمستمعين ، وانفرادها بين كافة معاصريها بالإعجاب ، وفد إلى الساحة الغنائية مطربات جديدات فظهرت "آمال الأطرش" شقيقه الموسيقار "فريد الأطرش" ذات الصوت الشجى الرائع الحساس المعبر والمسيطر على الوجدان لتغنى أغانى أم كلثوم التى كانت من أحب المطربات إلى قلبها ، والتى كانت من أكثر المعجبات بصوتها خاصة وأنها كانت أسبق من غيرها من المطربين والمطربات من تبيان ما فى صوت أم كلثوم من ألوان وطبقات لم يهبها الله لصوت مطربة سواها [١] وبعد أن استمع الملحن "داود حسنى" إلى صوتها فى عام ١٩٣١ تعهدها بالرعاية وأسماها "أسمهان" وعندما استمع إليها الموسيقار "مدحت عاصم" دهش لصوتها الساحر المنطلق من الأسس المحافظة إلى آفاق الكلاسيكية العربية الحديثة بما يتجاوز الحدود التى أصرت أم كلثوم على التوقف عندها [٢] فأخذ يتعهدها بالرعاية وإتاح لها الغناء بالإذاعة حتى خرجت على المستمعين بلون جديد من الغناء واتسعت شهرتها ، وبدأت السينما تتجه إليها ، وكان أول فيلم تغنى فيه هو مجنون ليلى ثم زاد من نجاحها وشهرتها فيلم "إنتصار الشباب" الذى عرض فى عام ١٩٤٠ وقامت ببطولته مع أخيها فريد الأطرش ونجح نجاحا باهرا [٣] . أما عن أمتع أغانيها فكانت "ليالى الأنس فى فينا" ضحكتك حلوة يا حبيبى" إمتى حا تعرف إمتى" " يا بدع الورد يا جمال الورد" وعلى الرغم من قيام النقاد بترشيحها للمكان الثانى فى عالم الغناء بعد أم كلثوم ، فقد اختفت لفترة ثم عادت مرة أخرى فى عام ١٩٤٤ حيث شاركت فى فيلم "غرام وانتقام" الذى تقاسمت بطولته مع يوسف وهبى وانشغلت فى تسجيل أغانيه ثم إنتهت حياتها فى عمر الزهور عن اثنتين وثلاثين عاما حيث اختفت إلى الأبد بعد حادث مريب لقيت فيه مصرعها غرقا أثناء ركوبها سيارة إنقلبت بها فى ترعة الساحل بالقرب من المنصورة خلال سفرها إلى "رأس البر" للاصطياف فى ١٤ يوليو ١٩٤٤ .

---

(١) سعيد أبو العينين : أسمهان لعبة الحب والمخابرات ، القاهرة كتاب اليوم ، سبتمبر ١٩٩٦ ص ١٢-١٣ .

(٢) إلياس سحاب : أم كلثوم وملحنوها ، ص ٥٢ .

(٣) سمير فريد : فريد الأطرش لحن الخلود ، القاهرة ، أمادو للنشر ١٩٦٦ ص ٣٨ .

وعلى الرغم من أن أصابع الاتهام فى تدبير مصرع "أسمهان" تشير إلى أجهزة المخابرات البريطانية التى لعبت معها ولحسابها ثم إنقلبت عليها ولعبت ضدها ، فقد سرت شائعة فى معظم أنحاء مصر غداة مصرعها بأن أم كلثوم هى التى دبرت لها الحادث خشية منها على مكانتها[١] .

والحقيقة أن أم كلثوم كانت بعيدة تماما عن هذا الادعاء ، وأن المخابرات البريطانية كانت وراء هذه الشائعة لتخفى دورها فى اغتيالها بعد أن ثبت دورها المزدوج وعلاقتها بالمخابرات الألمانية والإنجليزية . وظهرت ليلى مراد [٢] تلك المطربة ذات الصوت العذب البديع الذى أعطى للغناء العربى مذاقا خاصا والتى استطاعت أن تربط بين الحب والجمال في أذهان مستمعيها . فقد نشأت على تقليد أم كلثوم ثم انفردت بطريقتها المستقلة خاصة بعد أن شعرت أن الغناء على المسرح أمام التخت ساعات طوالا كما كانت تفعل أم كلثوم من الصعب تكراره ، فالتزمت حدودها كمطربة سينمائية الصوت والأداء ، لقد برزت ليلى مراد فى عصر الأصوات الجميلة القوية المدربة ، واستحقت لقب ملكة الأغنية السينمائية بجدارة حيث أتاحت لها السينما غناء العديد من أجمل الأغانى التى تألق فيها صوتها الجميل ذو البحة الخفيفة النادرة التى تنتاب نبراته بين الفينة والأخرى فى النغمات ، فاشتركت فى مجموعة من الأغانى الفكاهية التى ما زال الناس يطربون لها مثل ديالوج "الشحات" مع المطرب محمد فوزى وديالوجات أخرى مع إسماعيل يس وشكوكو ونجيب الريحانى وغيره ، وقد لحن لها عبد الوهاب العديد من أغانيها ، واستخدم أعلى طبقات صوتها فى فيلم "يحيا الحب" كما لحن لها القصبجى لحنه المدهش (أنا قلبى دليلى عام ١٩٤٧) ولحنين جميلين فى فيلم شاطئ الغرام[٣] .

وبعد أن أعطت ليلى مراد أجمل ما عندها ، واقتربت من سن الشيخوخة انسحبت من مسرح الغناء فى هدوء ورأت أن تبقى حلماً جميلاً فى نفوس مستمعيها . كما ظهرت المطربة اللبنانية "ألكسندرا بدران" التى اسماها يوسف وهبى "نور الهدى" ولكن نجاحها لم يستمر طويلا .

---

(١) أبو العينين : مرجع سابق ص ٢٢٦ .

(٢) نشأت فى أسرة فنية فوالدها المطرب زكى مراد ، وشقيقها الملحن منير مراد وقد أحبت الغناء من أبيها الذى ورثت عنه جمال الصوت .

(٣) القاهرة ، العدد ١٥٨ فى يناير ١٩٩٦ مقال للأستاذ كمال النجمى تحت عنوان "ليلى مراد ملكة الأفلام الغنائية" .

وظهرت نجاة على مقلدة لصوت أم كلثوم مستغلة فى ذلك معدن صوتها الجميل ، وعاشت أسيرة هذا التقليد ثم تزوجت واعتزلت الغناء بعد ذلك ولم يثر اعتزالها تساؤلا أو دهشة ، وكذلك فعلت رجاء عبده وفتحية أحمد ، وسعاد محمد ، ونادرة وفيروز ، ومن المؤكد أن مطربات مثل لطيفة وعليا التونسية أو سميرة سعيد المغربية وغيرها توصلن إلى الشهرة عن طريق ترديدهن لأغانى أم كلثوم ، ولكن قوة صوت أم كلثوم ومساحته الواسعة دفعهن إلى التحرك بتلقائية نحو مجالات أخرى من الغناء وهكذا فشلت الكثيرات ممن أردن تقليد أم كلثوم ، والجلوس على عرشها خاصة وأن صوتها كان جزءا منها لا ينفصل عنها ، صوت ليس ككل الأصوات ، كانت تغنى للغناء وحين تشاء لا كما يشاء الآخرون[1] ، لذلك فإن مقارنة صوتها بغيره من الأصوات يضره أكثر مما ينفعه ٠ وعلى كل حال فالسؤال الذى يطرح نفسه هو ٠ هل كان يجب على أم كلثوم أن تتوقف عن الغناء فى سنواتها الأخيرة كما توقفت عن التمثيل عندما اقترب سنها من الخمسين خاصة وأن ما قدمته للطرب العربى يكفيها عظمه وأبهة ، وبعد أن ظهر فى آخر حفلاتها أن صوتها تقطع ، وأنها أخذت تعثر على السلم الموسيقى حتى تدحرجت الدموع من العيون ، يقول أنيس منصور أنه كتب مقالا وجهه بصورة غير مباشرة لأم كلثوم أملا أن تكف عن الغناء فى سنواتها الأخيرة وطلب إليها أن تقرأه وموضوع المقال ماذا يحدث لو أن أم كلثوم توقفت عن الغناء منذ سنوات ؟ فالذى قدمته للغناء كثير ، وهذا الكثير يجعلها تنفرد بالعظمة فى الأداء والغناء ولكن أم كلثوم لم تع هذا المعنى ، ولم تكن تريد أن تتوقف[2] بل أرادت أن يستمر عطاؤها طالما بقيت على قيد الحياة ٠

أم كلثوم يندر تكرارها :

وهكذا كانت أم كلثوم ذلك النبع الصافى من الفن الرقيق العذب الصادق الذى أسهم إسهاما جوهريا فى خلق الأساليب المتطورة للتلحين والعزف والإيقاع ، وذلك النغم الجميل الذى اخترق الآفاق والذى رفع قدر المطربة وفرض احترامها على الناس فواجهها الناس بسلوك محترم حتى رحلت فى الخامس من فبراير ١٩٧٥ [3] بعد أن أعطت

---

(1) لمعى المطيعى : نساء ورجال من مصر ، مرجع سابق ص ١١-١٢ ٠

(2) أنيس منصور : عاشوا فى حياتى ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٠ ص ٣٩٠ ٠

(3) في الساعة الحادية عشرة من اليوم المذكور بدأ سير الجنازة وكان من المقرر أن تنتهى عند جامع جركس ، ولكن المشيعين لم يأبهوا لذلك ، بل توجهوا إلى مسجد الإمام الحسين حيث صلوا على جثمانها هناك وسط حشد هائل من محبيها ، لمعى المطيعى : مرجع سابق ص ١٨ ٠

لمصر والعالم العربى فناً رفيعاً راقياً ، وكان حب الناس لها من حب الوطن وكانت حديث الناس فى العالم العربى كله ، وفى العواصم العالمية التى يعيش بها الآلاف من العرب .

إنها ظاهرة ومعجزة فنية وثقافية من النادر تكرارها ، فقد ظلت حوالى نصف قرن تبشر بأنبل القيم وأغلاها وهو الحب ، وكلما انقضت الأيام ثبت أن صوتها خالد خلود الزمن ، وأن أغانيها ما زالت قبلة الشباب والشيوخ معا .

لقد امتلكت كوكب الشرق القلوب وملكت نفوذا هائلا ، وحصلت على أرفع الأوسمة من أغلب الحكومات العربية ، وظلت مكانتها فى قلوب الملايين خالدة حتى رحلت أم كلثوم بجسدها وإن ظلت باقية بفنها الأصيل ، وتراثها الغنائى الجميل الذى تزخر به مكتبات الإذاعة والتليفزيون فى كافة أنحاء الوطن العربى ، ولا يزال صوتها العبقرى يملأ الأسماع بأحلى ما صاغته عقول شعرائنا من أغنيات تحمل أسمى المعانى وأجمل الأفكار لتصوغها لحناً من إبداعات عمالقة الملحنين[1] .

والسؤال الذى يتردد على ألسنة الناس غالباً هل تتكرر ظاهرة أم كلثوم ؟

الواقع أنه إذا تغير المناخ الذى يعيشه فن الموسيقى والطرب الحالى ، وتناسى المطربون الجدد فكرة الكسب السريع ووقفت الدولة بالمرصاد لمفسدى الذوق المصرى ، وتنافس الشعراء والملحنون فى إبداع أحلى ما تجود به قرائحهم كما كان يحدث أيام أم كلثوم يمكن أن يبرز على الساحة الغنائية أمثال أم كلثوم التى صبرت فى بداية حياتها كثيرا حتى وصلت إلى ما وصلت إليه ، فمصر دائماً ولادة والأمل لا يزال قائماً فى الأصوات الواعدة التى يمكن أن تتكرر منها مثل هذه الظاهرة الفريدة

(1) الضمرانى : مرجع سابق ص ٦٦ .